الفصل السادس

طبيعة المراهقة

«أنا أكره وأحب.. ولعلك تريد أن تعرف السر فى ذلك. لست أدرى. ولكنى أحس بهذا وإنى معذب». فى هذه العبارة التى كتبها أحد شعراء الرومان تجمعت مصاعب المراهقة. فبعد الثقة والطمأنينة اللتين كانتا تملآن حياة الفتى فيما قبل سن البلوغ تأتى مرحلة شك وقلق وعدم استقرار تشيع فى حياته، سواء من الناحية الفسيولوجية أو السيكلوجية أو الاجتماعية. وليس فى ظهور هذه الحالة شىء يدعو إلى الدهشة أو الغرابة. فنحن إذا نظرنا إلى الناحية الاجتماعية وما يكتنفها من اضطراب وعدم استقرار تبيناً أنها ترجع إلى حد كبير للأجيال القليلة الأخيرة. فإلى عهد قريب كانت الأحوال الاقتصادية - ومازالت فى كثير من أنحاء المعمورة - لا تسمع بامتداد الفترة التى تقع بين سن ما قبل البلوغ وسن الرشد امتداداً طويلاً، إلا فى حالة القلة من أبناء الموسرين. فقد كان الفرد يعتبر طفلا إلى سن معينة، فما أن يجاوز تلك المرحلة حتى يصبح راشداً عليه مسئوليات الراشدين وله حقوقهم. ولكن التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التى حدثت فى أوربا وأمريكا وفى غيرها من أنحاء العالم المتمدين، أدت بالصغار إلى مواجهة مرحلة ليس لهم فيها حرية الأطفال ولا مركز الراشدين. فهم بين هؤلاء وهؤلاء يمثلون مشاكل الشباب التى نسمع عنها كثيراً. فعل الأفضل والحالة هذه أن نتحدث عن «المجتمع الذى لا يجد فيه الشباب مكاناً مستقراً».

من المستحيل أن نحدد بالدقة سنا تبدأ فيها المراهقة، إلا أن كل شخص يستطيع أن يتعرف على المراهق – ولداً كان أو بنتاً – عندما يراه وهو يترك سن الطفولة ويصبح على وشك الدخول فى حياة الكبار. نراه فى الغالب خجولا عابساً مهموما، «لخمة»، يتحسن بحذر طريقه الذى يفضى به إلى العالم الجديد. فالمراهقة ليست مجرد مرحلة نضج جثمانى تنشط فيها الأعضاء الجنسية، أو يقتصر فيها أثر الهرمونات الجنسية على مجرد إثارة انفعالاته ووجدانه، بل هى مرحلة تتميز بازدهار عظيم للشخصية كلها.

وإذا رجعنا إلى الأرقام التى جمعها البحاثة «كول» عن أطفال أمريكا لوجدنا أن البلوغ الجثمانى يبدأ من سن التاسعة حتى الثامنة عشرة عند البنات، بينما يتراوح عند البنين بين الحادية عشرة والثامنة عشرة. وفى حالة البنات نجد أن الفترة الأولى من بداية النضج يحدها خط فاصل واضح، يكون عند الثانية عشرة فى حالة ١٥ فى المائة من البنات، ثم تصل النسبة إلى ٥٠ فى المائة فى العام التالى، ثم إلى ٩٠ فى المائة عند سن الخامسة عشرة. أما فى حالة الأولاد فمن العسير علينا أن نحدد سن البلوغ بهذه الدرجة من الدقة، إذ لا يوجد حادث «مسرحى» جليل واضح عندهم يمكن أن يعين تاريخه بمثل الدقة التى يعين بها تاريخ

الحيض عند البنات. ومع ذلك فمن الممكن - على قدر المستطاع - القول بأن ذلك يحدث بنسبة ١٧ فى المائة فى سن الثالثة عشرة من الأولاد ثم تزيد النسبة إلى ٤٠ فى المائة عند السادسة عشرة. هذا يبين وجود فرق يتراوح بين سنة وسنتين فى المتوسط بين البنات والبنين، إلا أنه لا يمكن الأخذ بهذه الأرقام على نحو جامد، إذ أن السن التى تبدأ فيها الأعضاء التناسلية نشاطها تختلف من فرد لفرد ومن طقس لطقس ومن سلالة لأخرى، بل ولربما اختلفت أيضًا ما بين المدينة والريف. ولكنا على وجه التقريب نستطيع أن نقول إن المراهقة تبدأ فى العالم العربى فى المتوسط فى سن الرابعة عشرة عند البنين وقبل ذلك بسنة أو اثنتين عند البنات.

الحاجة إلى العطف

تأتى المراهقة بكثير من المشكلات. فإن أمرها لا يقتصر على حدوث تغيرات جثمانية ووجدانية بعيدة المدى، بل إنه لما يزيد الأمر تعقيداً ما يبدو من جانب كثير من الراشدين من مجانية العطف على المراهقين وفهم مشكلاتهم. ويبدو فى كثير من الأحيان أن للرجال والنساء قدرة فائقة على نسيان أيام شبابهم، ومن ثم تراهم يحكمون بمنتهى السهولة على تصرفات قاموا هم بمثلها يوماً ما. ومع ذلك فلعله لا يمر بالشخص وقت يكون فيه أحوج ما يكون إلى الكياسة والرقة فى معاملته مثلمًا يكون فى مرحلة المراهقة. فالمراهق شديد الإحساس بذاته، وهو يخشى - على وجه الخصوص - ملاحظة الغير له، ويتوجس خيفة ألا يرضوا عما يرون من أمره. إن أضأل عيب جثمانى فيه، بل أى شذوذ بسيط لا يكاد يعد عيباً - مثل لثغة خفيفة في لسانه، مما قد يعتبر خفيفاً جذابا فى مستقبل حياته - يسبب له صراعاً وخجلا واضطراباً بالغاً.

يرى المراهق أنه لا يجب أن يكون بالغ السمنة أو بالغ النحافة، ولا أن يكون مفرط الطول أو القصر، ولا أن يكون غزير الشعر أو بادى النعومة. ولا يوجد فى الواقع من يلقى بالا إلى هذه الصفات ولكن المراهق لا يصدق هذا وتنتابه الحيرة إذا أحس بأن رجليه أطول مما ينبغى أو أن سراويله أقصر مما يجب. وأما الفتاة فتكسو وجهها حمرة الخجل ويغلبها الاضطراب على أمرها إذا ما أتت، أو توهمت أنها أتت، خطأ اجتماعياً بالغاً ما بلغ من تفاهة الشأن، ومن الطبيعى أن تتوهم أن غيرها من الناس يعطى هذه الشئون التافهة من الاهتمام مثلما تعطيها هى. فلا غرابة فى أن يختلط الأمر على الشباب وأن يعانوا من الآلام وبلبلة الفكر قدراً كبيراً. فأى عجب إذا ما أخفوا حساسيتهم أحياناً بقناع من الشجاعة الظاهرية أو التظاهر الصاخب.

الميل إلى العدوان

كثيراً ما تعتبر النزعة العدوانية صفة ملازمة للمراهقة لا مهرب منها. والمدرسون جميعاً يعرفون ذلك التلميذ الذى تتبدل حاله بتقدم سنه، فبعد الوداعة التى كان يتسم بها قبلاً (وهو فى حقيقته ليس من الوداعة بالدرجة التى يتخيلها كثير المدرسين) إذا به يصير وقحاً مشاكساً وعنصراً من عناصر الشغب بالمدرسة. إن رواد الشباب جميعاً يعرفون الولد المتبرم بالسلطة، والفتاة التى تولى الأدبار هاربة إذا وجه إليها أى نقد، والشباب الذين قد يشرعون فى تحطيم النادى إذا أهملت مراقبتهم، وقد يُرى الوالدان دائمى التحسر من أجل فتاتهم شادية لأنها عرضة للتهيج والاستشاطة غضباً، ومن أجل ولدهم عصام لأنه عديم التمييز أو التعقل تماماً.

ألا يجوز أن يكون مرجع هذه النزعة العدوانية إلى حد كبير إلى عجز الكبار عن فهمهم فهماً مشروباً بالعطف عليهم، وإلى فشل المجتمع فى إدراك المراهقة على أنها طور طبيعى من أطوار النمو؟ إن كثيراً من القبائل البدائية تنهج فى هذا السبيل نهجاً أفضل من المجتمعات المتمدينة، فهم لا يرون فى بداية المراهقة شيئاً مقلقاً، ولا يعتبرونها انتقالا بغيضاً من الطفولة البريئة إلى الإثم والرذيلة؛ بل هى عندهم مرحلة عظيمة خطيرة الشأن فى حياة الشاب، يقابلونها بالترحاب والحفاوة ويحتفلون بها احتفالاً رائعاً وصفته الدكتورة «مارجريت ميد» فى كتاب لها اسمه «قبائل مانوس فى غينيا الجديدة» قالت: «إن ساعة المراهقة ذاتها تتميز بحفل تقليدى يمارسه الشعب. فعندما تحيض الفتاة لأول مرة يلقى والدها أو أولياء أمرها عدداً كبيراً من ثمار جوز الهند فى البحر، فيقفز أبناء الجيران جميعاً خلفها يصرخون ويتصارعون بعضهم مع بعض من أجل الفوز بثمار جوز الهند. إن الكبار لا ينظرون إلى هذا الحدث بقلق وحيرة، إذ يستدعى إقامة سلسلة كاملة من الطقوس الدينية، بينما ينظر إليه الأطفال باهتمام إذ يقام فى بيت المراهقة عدد من الاحتفالات المنزلية؛ وأما الفتاة المراهقة ذاتها فلهذا الحدث فى نفسها أثر اجتماعى بهيج فيه فرصة للزهر والظهور».

ألا يجدر بنا نحن أيضاً أن نعترف بأهمية هذه المرحلة وأن نعد لها البيئة المادية الاجتماعية المناسبة؟

نستطيع أن نفهم تماماً كيف أن المراهق وهو ذلك الشخص الذى يشعر بعيوبه شعوراً مبالغاً فيه ويدرك فى ذات الوقت أن التغيرات الجثمانية التى تحدث له إنما تعنى أنه فى سبيله إلى ترك مرحلة الطفولة، لابد أن يرتطم بالقيود التى يفرضها عليه الكبار الذين نسوا ماذا تعنى المراهقة. يجب أن تتاح للشباب الفرصة كى يخطئوا، وكى يتعلموا من أخطائهم، وينبغى أن يسمح لهم بأن يرغوا ويزبدوا أو أن يخجلوا كما يروق لهم، وأن يستجموا ويتكاسلوا إذا شاءوا، وان يتحرروا من الأعباء البدنية والوجدانية التى تثقل كواهلهم فى هذه المرحلة، أما الجهود

التى يبذلها الكبار البالغون عن حسن قصد ليضمنوا سير المراهقين على الصراط المستقيم لا يخطئون ولا يهفون، فيدفعون بهم دفعاً إلى النشاط الاجتماعى حين يرغبون فى الانفراد بأنفسهم، أو إلى التزام الهدوء حين يستشعرون الميل إلى الصخب، أو إلى «العمل النافع» حينما يميلون إلى الاسترخاء؛ أما هذه الجهود فهى ولا ريب تلقى من المراهقين - أيا كانت طبائعهم - مقاومة وتثير فيهم العصيان.

وليس فى هذا الأمر شيء من الخطورة على الرغم مما يثيره الشباب الثائر المتشكك الدءوب على الجدل من ضجر وقتى، فهذه الثورة لن تصير - إلا فى النادر - داءً مزمناً عديمة الهدف أو تودى بالشخصية. أما الخطورة الحقيقية والمشكلة الفعلية فإنما تكون إذا استسلم المراهق بغير اعتراض لكل ما يقول ويأمر به الكبار، وإذا آمن بكل معتقدات الجيل السابق دون تفكير أو مناقشة، ففى هذه الحالة يكون المراهق قد تخلى عن الصراع فى هذه المرحلة الشاقة وفضل عليه أن يعيش فى عالم وهمى من صنعه.

النمو الجثمانى

إن جزءاً هامًا مما يصيب المراهق فى هذه المرحلة من اضطراب وتبلد ذهنى يرجع إلى النمو العام السريع الذى يحدث عنده. فالطفل بعد الميلاد مباشرة ينمو نمواً هائلا ثم يكون النمو فى مرحلة الطفولة الأولى سريعاً نوعاً ولكنه بعد ذلك فى مرحلة الطفولة المتأخرة يقل معدل سرعة نموه، ويستمر الأمر كذلك حتى البلوغ حيث تحدث فى النمو طفرة أو قفزة جديدة، ثم إذا ما اكتمل النضج تبطئ سرعة النمو من جديد. ولكن الذين يكتملون نضجاً ما ينسون أن نسى المراهقة لها ضريبتها التى سبق أن أدوها قسراً. ففى حالة الجنسين تستطيل عظام الفخذ كثيراً وفى حالة الإناث يتسع الحوض ولهذه التغيرات وغيرها من التغيرات الأخرى التى تعترى الهيكل العظمى بآثارها الكبيرة، فقد يزيد المراهق خمسة عشر سنتيمتراً فى الطول واثنى عشر كيلو جراماً فى وزنه. ويزيد وزن العضلات بالنسبة لوزن الجسم زيادة كبيرة، فبعد أن كانت تبلغ ما يقرب من ربع وزن الجسم فى سن الثامنة إذ بها تصل بعد ثمانى سنوات، نصف وزن الجسم كله. كما تتزايد قوتها زيادة هائلة، ولما كان تحكم المراهق فيها لا يكون قد تم بعد فإن حركاته تبدو غير متناسقة ولذا يبدو متأخراً فى المهارة الحركية وتلوح عليه مظاهر الخمول. وفى سنى المراهقة أيضاً يتضاعف حجم القلب تقريباً، وتزيد سعة الرئتين وتتكون ممرات جديدة كثيرة فى الجهاز العصبى الآخذ فى النضج. ولابد إزاء هذه التغيرات التى تعترى نمو الجسم من ضريبة يؤديها المراهق، ولابد لنا نتيجة لما سبق أن نتوقع منه بعض فترات من الخمول والكسل.

ومع ذلك ففى الإمكان استغلال هذا النمو الجثمانى استغلالاً مفيداً. فالمراهقين - سواء أكانوا فى المدرسة أم فى النادى - ولع شديد بالاحتفاظ بتسجيلات بيانية شهرية تعبر عن

مدى زيادتهم فى الطول والوزن. فإذا استغلت هذه القياسات بطريقة معقولة أمكن أن تصبح أساساً لتنمية قدر من الاعتزاز المعقول بالنفس وهو الأساس الذى تنبنى عليه عاطفة اعتبار الذات.

التغيرات التى تحدث نتيجة لإفرازات الغدد الصماء

إن أبرز التغيرات التى تحدث فى أثناء فترة المراهقة هى تلك التى تحدث بتأثير الغدد الصماء. وتنتج هذه الغدد إفرازات كيميائية تسمى هرمونات، وهى تذوب فى الدم الذى يحملها إلى كافة أنحاء الجسم فتحدث أثراً بالغ القوة. ولعل الأنسولين أفضل مثل معروف للهرمونات وهو العامل الهام الذى ينظم استخدام الجسم لمادة السكر، ويؤدى فشل البنكرياس فى إفرازه إلى المرض المعروف (بالبول السكرى). كذلك يعرف أغلب الناس الغدة الدرقية التى توجد فى الرقبة، وهى إذا عجزت لسبب ما عن إفراز هرمونها المسمى (ثيروكسين) بالقدر الكافى أدى ذلك بالفرد إلى حالة واضحة من الخمول الجسمى والذهنى، وفى الحالات المتطرفة يصل بالفرد إلى درجة البله وتوقف النمو المعروفة باسم الـ Cretinism. أما إذا زادت نسبة الهرمون عما ينبغى فإنه يؤدى إلى تأثيرات جثمانية ضارة، كما أنه يجعل الشخص معرضاً لسرعة الاستثارة العصبية والاضطراب الوجدانى، بينما تؤدى الزيادة فى حجم الغدة ذاتها إلى الانتفاخ المعروف الذى يبرز فى العنق ويسمى الغوطر.

وتحتوى المبايض والخصايا أيضاً على أنسجة غدية صماء تنشط نشاطاً ملحوظاً فى بداية المراهقة وتفرز هرمونات تعمل مع الهرمونات التى تفرزها الغدة النخامية[1] على إحداث التغيرات المختلفة التى تدفع بالأطفال نحو النضج والوصول إلى البلوغ. ومن آثار هذه الهرمونات ظهور الشعر عند الفتيان والفتيات عند الإبطين وحول الأعضاء التناسلية، كما ينمو الشعر عند الأولاد فى الوجه والصدر أيضاً. وتمتلئ الأرداف والأثداء عند الفتيات ويغلظ صوت الأولاد. وتستثار المبايض والخصيات لإنتاج البيض والمنىّ، إلا أن هذا قد لا يتم إلا فى وقت متأخر من مرحلة المراهقة. والهرمونات الجنسية، بالإضافة إلى ما سبق، مسئولة جزئياً عن التغيرات الوجدانية التى تحدث فى هذه المرحلة وتولد الميل والرغبة الجنسية وهما من سمات النضج.

الحيض

ربما كانت بداية الحيض عند البنات أبرز التغيرات الناتجة عن فعل الهرمونات. ففى كل ثمانية وعشرين يوماً تقريباً قد يطلق أحد المبيضين الناضجين بيضة. فإذا حدث أن أخصبت

---

(١) من المعروف الآن أن بداية الحيض قد تسبق تكوين البيض بوقت طويل.

تلك البيضة فإنها تتحول إلى جنين، وهذا الجنين يحتاج إلى مصدر غنى يمده بالدم فـى جدار الرحم كى يواصل النمو، ويتجمع هذا الدم مرة كل شهر فى الرحم. أما إذا لم تخصب البيضة فلا تكون ثمة حاجة إلى مصدر الدم فيتحلل، ويمر الخليط المكون من الدم والأنسجة الأخرى من المهبل إلى الخارج لمدة بضعة أيام.

تقضى الحكمة بإعطاء الفتيان والفتيات شرحاً مبسطاً للحيض قبل انخراطهم فى سلك الشباب بوقت طويل. ومع ذلك فمن المؤسف أن نجد الفتاة لا تفهم مغزى دورة الحيض حتى بعد تدريبها على كيفية التزام النظافة أثناء العادة الشهرية، بينما يبدو الحيض بالنسبة لأغلب المراهقين من الأولاد شيئاً غامضاً معيباً. فمن الحكمة إذن أن يهتم رائدو الشباب بتنوير أذهان أعضاء النادى تجاه مسألة الحيض هذه.

القذف المنوى

كثيراً ما تقلق المراهقين مسألة يعتبرونها مشكلة، ولكنها ليست فى حقيقتها مشكلة على الإطلاق. فعندما يزداد نشاط غددهم الجنسية تزداد كمية الإفراز الناتج ويستحيل على المنى أن يظل يتراكم باستمرار، ولذا فهو يخرج عادة فى أثناء الليل عن طريق القضيب، فيحدث ما يسمى بالقذف الليلى، وقد تحدث هذه الظاهرة حوالى مرة فى الأسبوع. ويكون خروج المنى بهذه الصورة مصحوباً فى الغالب بأحلام تتسم باللذة الجنسية، ولذا يطلق على القذف الليلى اسم (الأحلام المبللة أو الاحتلام). ورغم أن هذه العملية طبيعية للغاية فهى مع ذلك. بالنسبة للملايين من الفتيان المراهقين، كابوس يقض مضاجعهم. فهم يعتبرونها خطيئة وغالباً ما يعانون من الشعور بالخطيئة دون أى مبرر لمثل هذا الشعور، ثم إن الجهلة وأدعياء المعرفة من الآباء غالباً ما يزيدون الطين بلة ويثقلون كواهل أبنائهم نتيجة لسوء الفهم والتقدير. وبذا يصبح الأمر الطبيعى الذى ينبغى ألا يستغرق التفكير فيه ثانية واحدة، مصدراً للقلق والصراع العقلى، بل قد يسبب فى بعض الأحيان شقاءً يستمر مدى الحياة.

ولعل الأحلام ذات اللذة الجنسية التى تصاحب القذف هى السبب الرئيسى فى الشعور بالخطيئة. فالأولاد والبنات مازالوا حتى اليوم يلقنون أنه من «قلة الأدب» أن يرى بعضهم بعضاً وهم عرايًا، كما تعتبر مشاهدة الأم وهى ترضع طفلها الصغير فى كثير من الأسر أمراً خارجاً، هذا إلى أن ذلك المنظر يكون فى بعض الأحيان باعثاً لدى الولد الصغير على الغيرة والحفيظة. ونتيجة لهذا أصبح أى حلم يكشف عن منظر أنثوى أو صورة شهوانية مثيرة مصدراً لصراع وجدانى بين اللذة والتقزز، وقد لا يدرك الولد أن الحلم فى ذاته خارج عن نطاق تحكمه الشعورى وأنه ليس «بمذنب» إذ يرى مثل هذا الحلم. فمن واجب الكبار أن يعينوا الأولاد ويبذلوا لهم النصح. مؤكدين أهمية مقدرة المرء على توجيه أفكاره وقت اليقظة، فى حين أن القذف أثناء النوم أمر طبيعى وأن الأحلام فى الحقيقة أمر لا يلام المرء عليه.

وفى بعض الأحيان يحدث عند البنات ما يشبه فى طبيعته الاحتلام عند الأولاد. وغنى عن البيان أنه لا يمكن أن يحدث قذف للمنى فى هذه الحالة، غير أنهن قد يصلن إلى النشوة الجنسية أثناء النوم، وهى نشوة تكون مصحوبة فى العادة بأحلام شهوانية أو أحلام يشوبها الجزع والقلق. ولما كانت هذه الحالة لا يصحبها - كما هو الحال عند الفتيان - خروج أى سائل منهن بجانب النظافة ويلوث قمصان النوم أو أغطية الفراش ويذكر المراهقة فى الصباح بما كان منها فى الليل، فإن المشكلة التى تواجه البنات فى الحالة العادية لا تماثل المشكلة التى تواجه الفتيان تماماً. ففى معظم الحالات يندر أن تفطن الفتاة فى الصباح إلى ما حدث أثناء النوم. وعليه فلا حاجة إلى تقديم الشرح على علاته لهن جميعاً، ولكن يحسن بالكبار أن يكونوا على إلمام بالحقائق بحيث يتمكنون من تقديم إرشادهم لمن تحتاج إليه.

العادات السرية

مشكلة العادات السرية من المشكلات العظمى للمراهقة. وقد قيل وكتب فى هذا الموضوع كثير من الهراء والتفاهات التى لا تجلب سوى المتاعب والأضرار. فهناك من يبث فى الفتيات أن ممارسة هذه العملية تؤدى بهم إلى التهلكة وتسبب كافة الأضرار، من بقع الوجه إلى الجنون: ومن الإصابة بالأمراض التناسلية إلى الهلاك الأبدى. وباسم العفة تلقى الأكاذيب جزافاً إلى الناشئين فلا يكون لهم منها سوى مرارة الشك واحتقار الذات.

والحقيقة تختلف عن ذلك اختلافاً بيناً، فمعظم الأطفال يبدون اهتماماً بالغاً بأعضائهم التناسلية، وهو اهتمام يختفى فى الأحوال الطبيعية من تلقاء نفسه فى مدى بضع سنوات، ولكنه يعود فيظهر من جديد فى سنى البلوغ. وهذه اليقظة الجديدة تأخذ فى الحالة الطبيعية شكل العادة السرية، وقد استعملت كلمة (الطبيعية) هنا عن قصد، إذ يبدو من المحقق أن الغالبية العظمى من المتحضرين يتجهون فى فترة ما نحو جلب اللذة لأنفسهم عن طريق الإمساك بأعضائهم التناسلية أو باستثارتها بطريقة ما. وتكون هذه العملية عادة أمراً يسيراً عند البنات، ولا تزيد فى حالتهن عن حركات التوائية تؤدى إلى استثارة الفرج. ولكنها فى الذكور تؤدى عادة إلى انتصاب القضيب وإلى القذف عند من بلغ منهم الدرجة الكافية من النضج.

يذكر أولئك الذين قاموا بدراسة هذا الموضوع دراسة جدية أن نسبة من يمارس هذه العملية من الرجال فى أوربا وأمريكا فى فترة ما من حياتهم لا تقل عن ٩٠ فى المائة، فى حين يذكر الكثيرون نسبة أكبر من هذه بدرجة محسوسة. فمن ذلك أن طبيب إحدى المدارس الإنجليزية الخاصة المشهورة يقرر أن نسبة من يمارسون تلك العادة من تلاميذ المدرسة المقيمين بها (بالقسم الداخلى) تبلغ ٩٥ فى المائة من عددهم. ومهما يكن الأمر فيما يتعلق بدقة هذا الرقم فإن الشىء

الواضح المحقق هو أن هذه العملية منتشرة بين المراهقين بدرجة كبيرة يمكن معها أن نعتبر الاستمناء أمراً طبيعياً بالنسبة لهم فى مراحل نموهم الجنسى.

هذا هو الحال فيما يتعلق بالذكور، أما إذا نظرنا إلى الإناث فإننا نجد الأمر جد مختلف، فليس من الميسور أن نطمئن إلى نسبة دقيقة لمن يزاولن هذه العملية. ويختلف التقدير بين أصحاب الشأن بصدد هذه النسبة اختلافاً كبيراً، فبينما يقول أحد البحوث التى أجريت فى أمريكا على ألف فتاة بالغة فى أحد المعاهد الأمريكية إن النسبة تصل بينهن إلى ٦٠ فى المائة، نجد من ناحية أخرى أن أكثر المدرسات ورائدات الشباب فى بريطانيا العظمى يرون أنها عملية نادرة بين الإناث. والذى يظهر من الإحصاء الأمريكى أنه على الأرجح مبالغ فيه بالنسبة للواقع إذا أخذنا فى اعتبارنا الحالات التى تمارس فيها هذه العملية شعورياً، أى عن قصد، لا مجرد استثارة تحدث فى حالة شبه شعورية. والمرجح أن النساء المتقدمات فى السن اللاتى لم يتزوجن أو اللاتى باعدت الظروف بينهن وبين أزواجهن هو اللواتى يقبلن على مزاولة هذه العملية عن قصد بنسبة كبيرة، على حين أن من يزاولنها من المراهقات لسن سوى قلة ضئيلة نسبياً.

ويستبد القلق بكثير من صغار الشبان من جراء ما يسمعونه من حكايات تتحدث عن الأضرار المزعومة للاستمناء. ويجد المراهق الذى يزاول هذه العملية نفسه مهدداً بكافة العلل والشرور التى تشير إليها الوريقات التى تتحدث عن هذا الموضوع؛ فمن جنون و «خفة فى العقل» إلى أمراض تناسلية سلٍ إلى فقدان للمقدرة الجنسية.

ومن أمثلة هذا، كتاب صغير باللغة الإنجليزية بعنوان «الرجل وعلاقاته الجنسية» وهو كتاب عن «مساوئ انحراف الشباب وطرق علاجها، والرجولة والحياة الزوجية»، لرجل يدعى «جون تومسون كارليل» وفيه يؤكد للقراء أن:

«هذه العادة القذرة، غير الطبيعية، الهدامة.. هى أفظع انتهاك للقانون الجنسى، وأبشع امتهان للأعضاء التناسلية، وهى عملية تؤدى إلى أوخم العواقب، سواء من ناحية النمو البدنى، أو الصحة والسعادة، بل حياة الفرد نفسها. وإن الألفاظ لتقف عاجزة تماماً عن إعطاء فكرة شافية عن الشرور التى تنجم من الإدمان عليها.. فهى تحطم عندما يمارسها من الأطفال كل عافية وصحة، فتضمر أجسامهم النامية ويشبون بأجسام هزيلة شاحبة. وبدلاً من أن تنمو عضلاتهم وعظامهم لتزداد أجسامهم حجماً وقوة فإن نموهم يتعطل حتى ليصبحون ضعافاً عجافاً كالأقزام. فإذا صادف أن كان بنيانهم قويا بالوراثة فقد يعيشون ويبلغون مرحلة الرجولة، ولكن العلة والضعف والمرض سوف يحل بهم، وسوف تكون عظامهم هشة يابسة وعضلاتهم لينة ضعيفة، وألياف المخ تعوزها الكثافة والقوة. وقد قرر مشاهير المختصين فى الأمور الجنسية أن المنى تتركز فيه صفات الحيوية لدرجة أن وزناً منه يعادل فى هذا وزن

أربعين قدراً مساوياً من الدم. ومن يمارس الاستمناء لابد أن يعاني من ذلك يوماً، فغالباً ما يصاب بالدرن والإنهاك العصبي والجنون ويبلغ أسوأ الدرجات من الناحية الجسمية أو العقلية. وسرعان ما يفقد هؤلاء الأفراد قدرتهم على الجماع، ولو بقى لديهم بعد ذلك شيء من الشجاعة يكفي لإقدامهم على الزواج فلسوف يكتشفون والخجل يأخذ بنفوسهم أنهم مصابون بالعنة أو العجز الجنسي.. فإذا افتقر الدم نتيجة لقذف المني، فإن العصر المعوى في المعدة يقل، وإذ تضعف الأعصاب للسبب نفسه، يقل النشاط وتختل عملية الهضم مما يؤدى إلى مرض سوء الهضم، ونتيجة لهذا لا يحصل الجسم على كفايته من الغذاء، وبالمثل تجف الأمعاء وتفقد النشاط مما يسبب الإمساك، كما تضعف ضربات القلب وتنتاب المصاب القشعريرة فى أطرافه، ويضعف نشاط الرئتين ويخمل الكبد وتتعطل الكليتان عن العمل.. وهكذا تتحطم تلك الآلة التى كانت قبل ذلك كائناً رائعاً نبيلاً، وإذا بالإنسان حطام هزيل».

وما كان لنا أن نحفل بهذه القائمة التى تثير الرعب أو نقيم لها أى اعتبار لو كانت قد كتبت فى القرن الماضى فننظر إليها على أنها مجرد أثر من الآثار القديمة البالغة الطرافة التى تشاهد فى المتاحف، لولا أن مثل هذا الهراء وقع فى يد مؤلف هذا الكتاب فى ديسمبر سنة ١٩٤٣م، والظاهر أنه لا يزال متداولا.

فلو أن هناك شيئاً ما من الصدق فى هذه المزاعم المزعجة لكان بنو البشر قد أصبحوا أفراداً تلازمهم الأمراض التناسلية مسلولين معتوهين؛ هذا إذا لم يكن الجنس الإنسانى قد انقرض عن بكرة أبيه نتيجة العجز الجنسى الشامل. ولكن لب الحقيقة فى هذه المسألة هو أنه ما لم يُغرق الشخص فى هذه العملية لدرجة الإفراط الشديد فلن يكون للاستمناء أثر ذو بال ضار بالجسم. فالجسم لا يفقد من «الطاقة الحيوية» بالاستمناء أكثر مما يفقده منها بإفراز المنى بالاتصال الجنسى الطبيعى. فلابد أن يكون ذلك العلامة الفهامة، الذى يزعم قدرته على تمييز من يستمنى بما يبدو عليه من إعياء أو ما يشوب وجهه من بثرات، على درجة خارقة من الفطنة والألمعية؛ ولابد من أن يكون أولئك الأساطين الذين يسطرون تلك الكتيبات المزعجة وينشرون تلك التحذيرات الرهيبة إما جهلة لا يعرفون، أو كذبة منافقين؛ أو هم يجمعون بين صفتى الجهل والنفاق معاً. فليست عملية الاستمناء مشكلة فى ذاتها ولا تعد انحرافاً حقيقياً إلا إذا تمكنت من الشخص بدرجة زائدة عن الحد تجعله يفضلها على الاتصال الطبيعى، وإنما المشكلة الحقة هى فى الصراع الفكرى الذى يحدث لممارسها نتيجة للتنديد بها، إذ يحتمل أن ينتج عن ذلك شعور بالخطيئة وخوف وخجل، مما يترتب عليه فقدان الشخص لثقته بنفسه وقد يصل الأمر به إلى بعض الأمراض النفسية. فالقضاء على عادة الاستمناء لا يكون عن طريق التقريع أو العقاب؛ لأن ذلك يدفع الشخص إلى زيادة التكتم والاستخفاء.

وبرغم هذا كله فلا يمكن القول بأن الاستمناء عادة مستحبة. فما هى فى أفضل حالاتها إلا تعبير ناقص عن الغريزة الجنسية. وقد يقال إنها خطوة أرقى تلى لعب الأطفال بأعضائهم الجنسية، فبعد أن كان يترتب على لعب الأطفال بأعضائهم الجنسية حدوث اللذة الحسية فإن الاستمناء يضيف إلى ذلك الإحساسات الوجدانية. بيد أن الناحية الوجدانية فيها تُتمركز حول الفرد، وهو أمر هزيل إذا قورن بالحب غير الذاتي الموجه إلى الغير، ذلك الحب الذى هو أبهى نتاج روحى للنمو الجنسى عند الفرد. وعليه فينبغى أن يكون الاتجاه العقلى الذى يشعر به المراهق نحو العادة السرية هو أن ممارسة عمل أتاه أغلب الناس فى وقت من الأوقات. وأنها شيء طبيعى إلى حد ما، فليست له نتائج وخيمة كتلك التى تعزى إليه فى كثير من الأحيان، ولكنها مرحلة انتقال إلى الحب الكامل بين الرجل والمرأة، وعلى ذلك فمن اللازم الإقلاع عنها، كما يحدث بالنسبة لعادات الصغر الأخرى.

وعند مناقشة المشكلات الوجدانية للاستمناء يجب ألا تغرب عن الذهن بعض الحقائق العملية الهامة التى تتعلق بالناحية الجسمية، من ذلك أن أى شيء يثير الالتفات إلى الأعضاء الجنسية يزيد من احتمال ممارسة هذه العملية.

وقد يكون اضطرار الأولاد إلى مسك قضيبهم عند التبول عدة مرات يومياً أحد العوامل التى تؤدى بهم إلى مزاولة الاستمناء. ومن الميسور معاونة الفتيان على التغلب على كثير من الأسباب الجسمية المؤدية إلى هذه العملية. ففى بعض الأحيان تكون القلفة ضيقة لدرجة تسبب للفتى عناء كبيراً، وفى مثل هذه الحالة يستحسن الختان[1]. وفى بعض الحالات الأخرى يؤدى تجمع اللخن[2] تحت القلفة إلى إحداث الالتهاب. ويمكن التخلص من هذا بأن تسحب القلفة إلى الخلف وينظف رأس القضيب من وقت لآخر. وبالمثل ينبغى أن تحافظ البنت على نظافة الأجزاء الخارجية من الأعضاء التناسلية، كما ينبغى أن نعمل على تعويد الأطفال الانتظام فى عملية التبول والتبرز، لأن امتلاء المثانة أو الأمعاء لدرجة أكثر مما ينبغى يكون سبباً فى استثارة الميل إلى الاستمناء. ومما يشجع أيضاً على ممارسة هذه العادة، الاستحمام فى الحمامات الشديدة السخونة. وتشجع عليها أيضاً ملابس النوم الشديدة الدفء أو الشديدة الثقل، كما يؤدى إليها الإقلال من تغيير الملابس التحتية أو ضيق تلك الملابس وقلة تهويتها. ويجب أن نخبر الشبان الصغار بكل هذه الأمور، لا نتوخى فى ذلك قيمتها العملية فحسب، وإنما نرجو بذلك أيضاً أن نخلق فى نفوسهم الأمل فى التخلص من هذه العادة بعد إرشادهم إلى الوسائل الناجحة لمحاربتها، فقد ثبت أن لوجود مثل هذا الأمل قيمة معنوية كبرى.

---

(١) الكاتب يتكلم عن بلاده حيث عملية الختان نادرة، وهذا يختلف عن الحال عندنا.

(٢) اللخن Smegma هو المفرز الشحمى من القلفة ويشبه السوائل المتجبنة.

إن أعظم شيء يستطيع الكبار أن يفعلوه في هذا الصدد هو أن يفعموا حياة الشبان بما ينبغي أن تزخر به من ألوان النشاط المتنوع الممتع لهم، حتى تشغلهم عما عداها من ضروب النشاط غير المرغوب فيه.

المعانقة

المعانقة أمر وثيق الاتصال بالاستمناء، فكلاهما يهيئ متنفساً للشعور الجنسي الزائد، ويكون في الحالة الأولى عن طريق العناق والمداعبة (أو كما يسميها الفتيان في لغتهم الدراجة «التجسيس»). ويضم هذا العنوان ألواناً شتى عديدة واسعة المدى من التصرفات. فالمعانقة في أبسط صورها لا تزيد على التقبيل والملاطفة العذرية، ولكنها قد تنحو نحواً متطرفاً يكون فيه التماسك والاتصال الجسمي وثيقاً ولا ينقصها غير الاتصال الجنسي الحقيقي. وينبغي في هذه المشكلة، كما في غيرها من المشكلات، أن يحدد كل شخص بنفسه المدى الذي يصل إليه. ورغم ذلك نستطيع أن نقول إن الاستثارة المستمرة إذا لم يصحبها ذلك التنفيس العجيب عن طريق الاتصال الجنسي كان من الممكن أن تؤدي إلى تحطيم الأعصاب. فالاستثارة الجنسية المتبادلة والتي تثق دون الإشباع الجنسي الكامل قمينة بأن تسبب المتاعب.

تتضمن العملية الجنسية «الانتعاظ» وهو امتلاء أنسجة الأعضاء الجنسية القابلة للانتصاب بالدم نتيجة للمغازلة، «والانكماش» وهو تفريغ ما بهذه الأنسجة من الدم نتيجة لحدوث النشوة الجنسية. ويعبر «هافلوك أليس» عن هذا بقوله إن «الانتعاظ هو تعبئة الوقود؛ والانكماش (أو الارتخاء) هو انطلاق اللهب المحرق. ففي حالة الانتعاظ يشحن العضو وتتجمع القوة ببطء؛ وعند الانكماش تنطلق تلك القوة». وهذه الدورة الطبيعية لا يمكن أن تتحدى ما قد تجره المبالغة في تواترها من عقاب أو جزاء على زعم أنها أمر طبيعي لا ضير منه، فإن الانتعاظ إذا تكرر دون أن يعقبه تنفيس للطاقة يؤدي إلى انحراف في الانعكاسات الجنسية العادية مما يجعل نجاح الاتصالات الجنسية بعد ذلك أمراً عسيراً. فالشيء المرن يفقد مرونته إذا شُدّ أكثر مما ينبغي، وينطبق هذا الأمر على كلا الجنسين. وإذا كان الانتعاظ أكثر وضوحاً في الذكر، فإن الأجهزة الأنثوية تحتوي بالمثل على أنسجة قابلة للتوتر، وهي أيضاً تنتفخ أثناء الاستثارة الجنسية. والانتعاظ وما يتبعه من قذف عند الذكر حادث كبير واضح محدد المعالم، ولكن الأنثى لها هي الأخرى نشوتها الجنسية الخاصة بها. وبالإضافة إلى ما تقدم فإن تبادل القيام بالعادة السرية - الذي ينتهي إليه العناق والمداعبة غالباً - يصل إلى نهايته دون أن يؤدي إلى تمام الإشباع، وقد تتكون عنه انعكاسات تختلف عن الانعكاسات الطبيعية، مما قد يترتب عليها في الحياة المقبلة صعوبات في بناء النظام العصبي للعلاقات الجنسية الكاملة، وهي ضرورة لا غنى عنها للاستمتاع الكامل بالاتصال الجنسي الطبيعي.

غير أنه إذا كان الاستمناء عادة يجب عدم تشجيعها وكانت المداعبة والعناق أمراً يجب الحث على الإقلاع عنه فماذا نعمل إذن حيال المطالب الملحة التى تلازم النمو السليم للدوافع الجنسية عند الشباب؟ إن إجاباتنا يجب أن تستهدف فى نهاية الأمر تغيير المجتمع حتى يصبح الزواج ممكنًا من الناحية الاقتصادية لجميع الأفراد عندما يبلغون العقد الثالث من أعمارهم. ولكن هذا الأمر حلم يحتاج إلى زمن طويل لتحقيقه، بينما يتحرق الملايين من الشباب إلى إشباع الرغبة الجنسية.

والحقيقة أننا إذا كنا نطلب من الشباب أن ينكر على نفسه ما تتطلبه من حاجة إلى إشباع عاجل لدوافعه الجنسية في انتظار المستقبل، فلابد من أن نقدم إليه الدليل الذى يقنعه بأن له مستقبلاً يبشر بالخير خليقاً بأن ينتظره وأن يصابر الزمن حتى يتحقق؛ ذلك لأن من أسباب المشكلة الجنسية – حالها فى ذلك حال غيرها من مشاكل الوقت الحاضر – نقص الإيمان العميق فى أى شىء على الإطلاق. دعوا الناس يشعرون شعوراً راسخاً مكيناً بالمسئولية الاجتماعية، ولسوف يختفى بذلك جانب كبير من هذه المشكلة.

الإعلاء

كلمة الإعلاء هذه محل لشيء كثير من التلاعب، فهى كثيراً ما ينظر إليها على أنها المعادلة السحرية التى تحل كافة مشكلات الشباب. فالمشرف فى المدرسة الثانوية ينصح الفتيان بتحويل طاقتهم إلى لعبة كرة قدم، بينما يشير عليهم الإخصائى الاجتماعى بأن يلتحقوا بأحد الأندية، على حين أن رجل الدين يعظهم بأن ينصرفوا إلى زيادة التهجد والعبادة. وهذه كلها ولاشك ألوان من النشاط المنتج كل فى ناحيته – ولكن ليس فيها ترياق شاف للاضطرابات الجنسية.

غير أنا لو بعثنا الأمل فى نفوسهم بأن قلنا إنه ليس مما ينافى طبيعة الإنسان أو يحمله أوزار الإثم والخطيئة أن يشعر بالأحاسيس والرغبات الجنسية أكثر مما يوجد من هذا وذاك فى شعوره بالرغبة فى تناول الطعام؛ وأنه إذا كان ذوو العزائم القوية من الناس لا يندفعون وراء شهوة البطن ففى مقدورهم إذن، إذا توفر لديهم أى قدر من احترام الذات، أن يعملوا ما وسعهم الجهد على التحكم فى رغباتهم الجنسية. بمثل هذه الطريقة يمكن استغلال الدوافع الجنسية فى فترة المراهقة كوسيلة لبناء الخلق عن طريق تهذيب النفس.

إن تحقيق الإعلاء أصعب منالاً من الكتابة فيه أو التحدث عنه. والواقع أن كثيراً مما يكتب فى هذا الشأن ليست له علاقة على الإطلاق بالإعلاء فى صميمه. فبالإعلاء توجه الطاقة الجنسية فى مسالك عميقة منتجة، كما كانت الحال عند الكثيرين من الزعماء الروحيين قديماً. وكما هى الحال فى حياة الكثير من الناس فى الوقت الحاضر. ولكن استعدادات الناس

فى هذا تتفاوت. والواقع «أن كثيراً من الناس - كما قال فرويد - ليس لديهم إلا نصيب ضئيل من الاستعداد للإعلاء». وعلى أى حال «لا يمكن بالإعلاء إلا استنفاد نسبة معينة فقط من الطاقة الجنسية». فالكثير مما يسمى «إعلاء» هو فى الحقيقة تحويل للقوة الجنسية الدافعة إلى مسالك أخرى، كثيراً ما لا يحمد أمرها مثل النرجسية[1] أو الأمراض النفسية. فالواجب يقضى إذن بالروية والحرص فى استخدام هذه الكلمة، وخاصة فى وصفها كعلاج شامل للمراهقين الذين أثقلت كواهلهم ألوان الصراع والعناء. وإذا بدا للمربى أن الإعلاء قد يفيد، فلا أقل من أن يقوم بتقديم اقتراحات معينة للصورة التى يمكن أن يكون عليها الإعلاء المنشود، ولا يترك الأمر كسبيل غامض للكمال لا يرتجى منه خير.

التعليم الجنسى فى النادى

فيما يُستقبل من الزمان، عندما يحل الوقت الذى يقوم فيه الوالدان بأداء دورهما كاملاً فى التربية الجنسية، وحين لا يترك التلميذ مدرسته إلا وقد تزود بقدر مفصل واف عن الحقائق الجنسية والسلوك الصحى السوى إزاءها؛ فى هذا الوقت سوف يلقى عن عائق مؤسسات الشباب عبء ثقيل، وعندئذ تصبح مشكلة هذه المنظمات أهون سبيلاً مما هى الآن. ففى الوقت الحاضر وإلى مدى سنوات عدة يبدأ شبابنا حياتهم العملية وهم لا يكادون يعرفون شيئاً عن المعلومات الجنسية أو يفهمون منها سوى النزر اليسير. وعلى ذلك فإن الضرورة الملحة تجعلنا تتطلع لا إلى رائدى الشباب فحسب وإنما أيضاً إلى الإخصائيين الاجتماعيين فى المصانع وما إليها، كى يساهموا بقسط أوفر مما تتطلبه طبيعة أعمالهم فى التربية الجنسية. فعليهم أن يعملوا على بحث أكداس من المعلومات غير المهضومة والتى تقف وسطاً بين الحقيقة والخيال؛ وأن يقوّموا عقولاً حرفتها السنون بمعيشتها فى مجتمع يسوده النفاق وفحش القول. عليهم إنجاز هذا الواجب قبل أن يشرعوا حقاً فى بناء إيجابى للاتجاه النفسى السليم نحو الجنس.

إن تلك المؤسسات التى تتكفل بتعليم الإسعافات الأولية ورعاية الطفل والصحة الشخصية والعامة، وتعتبر ذلك جزءاً من نشاطها، تستطيع أن تعمل الشىء الكثير بأن تضمن نشاطها ما يناسب التربية الجنسية التى يغفلونها إغفالا تماماً فى الوقت الحاضر. ولكن المشكلة تزيد عسراً إذا لم توجد الفرص المناسبة لمثل هذا اللون من النشاط، وفى مثل هذه الحالة يصبح من الضرورى محاولة علاج الموضوع عن طريق المحاضرات التى يمكن تنظيمها كلما حانت الفرصة.

ويتطلب هذا العمل مهارة خاصة، وهو من الأعمال التى يشعر معظم المشتغلين بالخدمة الاجتماعية فى محيط الشباب بالنفور من الاضطلاع بها، وهم يستطيعون أن يفيدوا من

---

(١) مرحلة مبكرة فى نمو الطفل تكون الذات فيها مركزا لاهتمامه فيهيم بنفسه ويولع بشخصه أكثر من أى شىء آخر. وقد يعترى الكبار مثل هذا بشكل شاذ فى بعض الأمراض.

الاستماع إلى دراسة فى مسائل الجنس ومشكلات المراهقة، أما فيما يتعلق بأعضاء نواديهم فقد يكون من الخير لهم أن يلجأوا إلى استدعاء المتخصصين كى يستمدوا منهم العون.

ولا محل هنا للاعتراضات التى توجه ضد تطبيق هذه الطريقة بالمدرسة، فزيارة الأشخاص الخارجيين للنادى وقيامهم بإلقاء الأحاديث فى شتى الموضوعات من الأمور العادية، فلا بأس إذاً فى أن يكون موضوع الجنس من بين هذه الموضوعات. ويمكن بعد إلقاء ثلاثة أحاديث أو أربعة فى هذا الموضوع تصحبها الأفلام التوضيحية، وتعقبها الأسئلة والمناقشة، أن يزول كثير من الخلط والخطأ الذى يخيم على أذهان الشباب، وأن يزودوا بقدر مناسب من المعلومات التى تعدهم ليرسموا لأنفسهم الاتجاهات الصحيحة للسلوك الجنسى. ويُجمع من سبق لهم الاستماع إلى هذه الأحاديث على اهتمام الشبان الذين يستمعون إليها، وعلى شغفهم بتوجيه الأسئلة، وعلى حسن استعدادهم للفهم. وإن ما أمكن القيام به فعلا فى هذا الميدان – فى بلاد مثل إنجلترا – حيث شمل العمل بضعة آلاف من الشبان فى بضع سنوات، ليعتبر مثلا لإحدى النهضات الكبرى فى الميدانين الاجتماعى والتربوى فى السنوات العشر الماضية. فهذا حقل للعمل المنتج أمام الأخصائيين المتنقلين ليعملوا فيه ويثمروا، وقل أن يوجد سواهم من يستطيع أن يطرق هذا الموضوع ويحوز فيه نجاحاً مثلهم.

كليات الشباب

وليس فى الإمكان أن تستوعب اجتماعات ثلاثة أو أربعة كل شىء يتعلق بالموضوع الجنسى، ولكن هذا هو ما يتسع له وقت الشبان الذين يشتغلون الساعات الطوال كل يوم ويذهبون بعد ذلك إلى النادى بقصد الترفيه أولاً وقبل كل شىء، وبعبارة أخرى فإن هذا الوقت – رغم عدم كفايته – هو كل ما يمكن استغلاله لهذا الغرض. غير أن هذا يحتم علينا فى المستقبل تغيير الموقف الحالى فى كليات الشباب، إذ من المستطاع أن يعالج الأمر مع المراهقين قبل أن ينقطعوا عن المدرسة مدة ثلاث أو أربع سنوات تفقدهم القدرة على متابعة الدراسة المتصلة، وذلك بأن يعطوا شيئاً مناسباً مثل الإعداد للحياة العائلية كجزء من دراستهم وبحيث يكون متصلاً بالنظام التربوى. ففى الإمكان أن يقدم لهم كل ما تعملوه فى البيت وفى المدرسة منسقاً منظماً، ثم يضاف إليه المزيد مما يناسبهم، مثل مسئولية الأبوة والأمومة التى يمكن أن تعالج معهم بطريقة يستحيل اتباعهم مع من كانوا أصغر سناً، كما يمكن أن يعالج أيضاً موضوع الإعداد للزواج وتولى أعباء الأسرة بشكل محدد واضح.

وإن مستقبل كليات الشباب بما تستقر عليه الأمور فى هذه الناحية إنما هو رهن بما يعمله المدرسون ورائدوا الشباب فى الوقت الحاضر. ولسوف يجدون أمامهم فرصة رائعة للعمل، فلا يسع المرء إلا أن يتمنى لهم أن يستغلوها لأبعد الحدود.

برامج النوادى و «المحلات»

ليس من الضرورى أن نعيد تفصيلاً ما سبق أن ذكرناه من أمر المدرسة، وهو أنه بعد أن يتم تلقين المعلومات يبقى شيء كثير بحاجة إلى الاستكمال. فبالمناقشة والمناظرة تتضح وجهات النظر وتدعم المعتقدات. وبالحركة والسباحة وركوب الدراجات تتدرب الأجسام وتنتعش العقول. وبالموسيقى والتمثيل وغيرهما من ألوان النشاط الإبداعى قد تجد الطاقة الجنسية منصرفاً ومتنفساً.

بيد أن المراهقين لا يقضون طوال وقتهم فى النادى. فهم يقصدونه بعد الانصراف من المصنع أو المكتب أو المحل أى بعد قضاء عدة ساعات يومياً تتأثر فيها اتجاهاتهم إزاء المسألة الجنسية. وفى الورش بنوع خاص تتسم آحاديث البالغين بالبذاءة والفحش إلى أبعد الحدود، ويعبر الصبى الحدث عن رجولته بتقليدهم فى ذلك. ومع ذلك فإن الكلمات والإصطلاحات الجنسية فى حد ذاتها لا هى بالشيء الحسن ولا بالشيء القبيح، ولكنها إذا استعملت يومياً بقصد بذيء تصبح بذيئة. ولن يكون تغيير هذه الحال سهلاً ميسوراً، ومع ذلك فهو أمر حقيق بأن يتصدى له كل العاملين فى ميدان الخدمة الاجتماعية بين الشباب. ومن الميسور عمل شيء بسيط من الناحية المادية مثل إعداد دورات المياه إعداداً مقبولاً لا يدعو إلى البذاءة. ولكن الأمر أهم وأخطر من هذا، فالجو العام المحيط بالشباب كله سواء فى أثناء العمل أو فى النادى فى حاجة إلى النقاء والقوة.

ومن الممكن أن يفيد الشباب كثيراً من مكتبة النادى إذا كانت جيدة متزنة فيما تحويه من كتب. ومن اللازم أن تضم بعض الكتب التى تتعرض للحقائق الجنسية، فيرجع إليها الأعضاء للاستزادة من المعرفة فى هذه الناحية، كما ينبغى أن تكون مزودة بكتب تعالج مسائل السلوك وتناقش، دون أن تعظ، موضوعات مثل العفة والإباحية والمداعبة والخطبة والزواج، وغير هذا من الكتب التى تختص بمعالجة الموضوعات الجنسية على وجه التحديد، وإنما يمكن أن تفيد فى تكوين الاتجاهات الصحيحة عنها. ومن أمثال هذه الكتب القصص الروائية التى تعالج موضوع الحب على أنه أمر عميق ناضج وليس على اعتبار أنه مسألة قضاء وقت عابر «فى أحد ليالى الصيف على شاطئ النيل الهادئ وفى ضوء القمر». لن يقرأ جميع المراهقين أمثال هذه الكتب، ولكن بعضهم سوف يقرأونها فلابد من تهيئتها لهم فى المكتبة كما تهيأ الأنواع الأخرى من الكتب سواء بسواء.

دعنا نسقط من حسابنا فكرة اللف والدوران والسرية فى مواجهة المشكلات الجنسية عند الشباب. فالاهتمام بالأمور الجنسية أمر طبيعى عندهم فيجب ألا يضطروا إلى اتخاذ خطوات شاذة فى سبيل إشباعه.

النوادى المختلطة

إن ميزات النادى المختلط فى ناحية التربية الجنسية ميزات هامة عظيمة، والحجج التى ترجح قيمة هذه النوادى هى بذاتها التى ترجح كفة المدارس المختلطة على كفة المدارس المنفصلة، ولكن مما يزيد فى ترجيح أفضلية النادى المختلط هو أن الزواج يكون قد أصبح أمراً أقرب بعدة سنوات مما هو بالنسبة للتلاميذ والتلميذات فى المدارس. ومن ثم فإن حاجة كل من الجنسين من الشباب إلى فهم الجنس الآخر تشتد وتزيد. أما دعاة النوادى المنفصلة فإنهم يحاولون فى بعض الأحيان معالجة هذه المشكلة عن طريق بعض البرامج الاجتماعية التى يصح أن تدعى إليها «صديقات» الشبان و «أصدقاء» الفتيات. ولكن كثيراً من المراهقين يكونون فى المرحلة التى يتحسسون فيها طريقهم، فلا يرضون بالارتباط برفيق واحد، بل لعل الواحد منهم لا يتمكن من دعوة زميلته (أو زميلها) ليقضى معها أمسية سارة فى النادى. ومن جهة أخرى كيف يستطيع الواحد منهم أن يتخير زميلته من بين مجموعة كبيرة إذا لم تتوفر له فرصة مقابلة هذا العدد الكبير؟

وقد تؤدى بعض ألوان النشاط فى النادى المختلط - كالرقص والمباريات المختلطة - إلى نوع من الاستثارة الجنسية، غير أن هذا النشاط يوفر للأعضاء فى ظل النظام المحكم والإدارة الحازمة فرصة طيبة لدراسة بعضهم بعضاً وتقديرهم، لا كمجرد ذكور وإناث فحسب بل من حيث الشخصية أيضاً. فتنظر الفتاة إلى زميلها وتناجى نفسها بقولها: «هو راقص مبدع، ولكن هل تراه يشاركنى فى غير هذا من الميول والاتجاهات، وهل إذا صار زوجاً لى أقبل على مساعدتى فى الشئون المنزلية، أم نراه ينظر إليها على اعتبار أنها من اختصاص النساء وحدهن دون الرجال؟». ويقول الشباب: «يا لها من فتاة تسحرنى ابتسامتها العذبة! إنها تتقن استعمال مستحضرات التجميل، ولكن ترى هل تعرف كيف تأخذ وتعطى، وهل هى الشخصية التى أحب أن تشاركنى حياتى كلها؟». إن أعضاء النادى المختلط يجدون الفرصة مواتية للإجابة عن أمثال هذه الأسئلة.

والأمر لا يخلو بطبيعة الحال من الصعوبات، فالفرص الجديدة تأتى بمشكلات جديدة. فمن الحقائق المسلم بها أن صغار الفتيان لا يشعرون بالميل إلى الاختلاط بالبنات، وهم يكونون أكثر سعادة فى معظم الوقت إذا اجتمعوا مع الذكور من أمثالهم. ولكن حتى فى النادى المختلط قد يجتمع الذكور معاً وتجتمع الإناث معاً فيحتفظ كل من الجنسين باستقلاله ويمارس النشاط الخاص به، وليس من المعقول أن يرغم المرء على أن يأخذ بما لا يريد وأن يدع ما يريد. وعلى هذا فليس من الحكمة فى شىء أن يجبر الفتيان والفتيات على الامتزاج إذا لم يرضوا هم بذلك ولم يقبلوا عليه.

ولابد من أن نسلم كذلك باحتمال حدوث زلات جنسية قد تسيىء إلى سمعة النادى. ولكن الأفراد الذين يرتكبون هذه النزلات فى معظم الحالات يكونون عرضة لارتكابها لو أنهم كانوا

منتمين إلى نواد منفصلة، بل حتى لو لم يكونوا أعضاء فى نواد على الإطلاق. والفارق الوحيد بين الحالين هو أن الرائد يظل فى الحالة الأخيرة على جهل بما حدث فيعجز بطبيعة الحال عن إصلاح الخطأ. ويمكننا أن نصوغ المسألة على النحو الآتى: أيهما أهم فى الحقيقة؟ أهى «السمعة الطيبة للنادى» أم مصلحة الشباب الذين تنشأ النوادى لخدمتهم؟ إن الرواد ذوى الإحساس الزائد المرهف نحو سمعة نواديهم يسبحون بالحمد والشكر إذا لم يوجد من بين أعضاء نواديهم من يتصف بالقدرة على النقد الدقيق العميق بمثل قدرة تلك الفتاة التى استرجعت أيامها بالمدرسة الماضية فقالت:

«برغم أنها كانت مدرسة مختلطة، لم يكن يسمح للأولاد والبنات بالاختلاط فيها قط. وحتى فى الفصل المختلط لم يكن من المفروض أن يتحادث الأولاد والبنات سوياً. وكانت الصداقة بين الجنسين محرمة فعلاً، وكان العقاب الصارم من نصيب من يخرق تلك القاعدة. وكان السبب فى منع الأولاد والبنات من السير معاً فى الذهاب والإياب من المدرسة وإليها هو ما فى ذلك من مساس باسم المدرسة».

إن مؤسسات الشباب التى تأخذ الأولاد والبنات ليقيموا معاً فى معسكرات مشتركة، حيث يغتسلون من مجرى ماء واحد، وينامون لا يفصلهم عن بعضهم غير جدارين رقيقين من الخيش، لم تصادفها المشكلات الجنسية ولم تعترض طريقها، بل إن الأمر على العكس من ذلك، لأن اشتراك الفتيان والفتيات معاً فى معيشة واحدة، فيقشر الفتيان البطاطس مع الفتيات ويقومون بغسل الأطباق فى حين أن الفتيات تقمن مع الفتيان ببناء الخيام وتقطيع الأشجار، فإنهم بهذا يزدادون فهماً واحتراماً بعضهم لبعض. وهذا الفهم والاحترام المتبادل أمر ضرورى لا مندوحة عنه إذا أريد للحياة الجنسية المستقبلة أن تبلغ خير ما يمكن أن تصل إليه. ولعلنا جميعاً نتفق مع من قال:

«لو أن الله أراد أن تسيطر المرأة على الرجل لأخذها من رأس آدم. ولو أنه أرادها له عبدة لأخذها من قدميه. ولكن الله أخذ المرأة من جنب الرجل، لأنه جعلها رفيقة له تعاونه ومساوية له».